سورة الفرقان

١ـ **سميت هذه السورة سورة الفرقان** في عهد النبيﷺ وبمسمع منه؛ ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: «سمعت هشام بن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله؛ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله؛ فكدت أساوره في الصلاة؛ فتصبرت حتى سلم فَلَبَّبْتُه بردائه، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها..» الحديث.

ولا يعرف لهذه السورة اسم غير هذا، والمؤدبون من أهل تونس يسمونها (تبارك الفرقان) كما يسمون (سورة الملك) تبارك، وتبارك الملك.

ووجه تسميتها (سورة الفرقان) لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات في أولها، ووسطها، وآخرها.

وهي مكية عند الجمهور، وروي عن ابن عباس أنه استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله ـتعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

والصحيح عنه أن هذه الآيات الثلاث مكية كما في صحيح البخاري في تفسير سورة الفرقان: «عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ فقرأت عليه: ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي؟ فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء يريد قوله ـتعالى ـ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً

مُتَعَمِّداً﴾ الآية.

وعن الضحاك: أنها مدنية إلا الآيات الثلاث من أولها إلى قوله: ﴿وَلَا نُشُوراً﴾.

وأسلوب السورة وأغراضها شاهدة بأنها مكية.

وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يس، وقبل سورة فاطر، **وعدد آياتها** سبع وسبعون باتفاق أهل العدد. ١٨/٣١٣-٣١٤

٢- **واشتملت هذه السورة** على الابتداءِ بتحميدِ الله -تعالى- وإنشاءِ الثناء عليه، ووصفِه بصفات الإلهية والوحدانية فيها.

وأُدْمِجَ في ذلك التنويهُ بالقرآن، وجلالِ مُنَزِّلِه، وما فيه من الهدى، وتعريضٌ بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويهُ بشأن النبيﷺ.

وأقيمت هذه السورة على **ثلاث دعائم: الأولى:** إثبات أنَّ القرآنَ منزلٌ من عند الله، والتنويهُ بالرسولِ المُنَزَّلِ عليه ﷺ ودلائلُ صِدْقه، ورِفْعَةُ شأنه عن أن تكونَ له حظوظُ الدنيا، وأنه على طريقة غيرِه من الرسل، ومن ذلك تلقى قومُه دعوتَه بالتكذيب.

الدعامة الثانية: إثباتُ البعثِ والجزاء، والإنذارُ بالجزاء في الآخرة، والتبشيرُ بالثوابِ فيها للصالحين، وإنذارُ المشركين بسوءِ حظهم يومئذ، وتكونُ لهم الندامةُ على تكذيبهم الرسولَ، وعلى إشراكهم، واتباعِ أئمة كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلالُ على وحدانية الله، وتفردُه بالخلق، وتنزيهُه عن أن يكون له ولدٌ أو شريكٌ، وإبطالُ إلهيةِ الأصنامِ، وإبطالُ ما زعموه من بُنُوَّةِ الملائكة لله -تعالى-.

وافتُتِحَتْ في آيات كلِّ دَعامةٍ من هذه الثلاث بجملة ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي ﴾ الخ.

قال الطيبي: «مدارُ هذه السورة على كونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافةً ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم؛ ولهذا جَعل براعةَ استهلالِها ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾».

وذَكَرَ بدائعَ مِنْ صنعه ـ تعالى ـ جمعاً بين الاستدلال والتذكير.

وأَعْقَبَ ذلك بتثبيت الرسول ﷺ على دعوته، ومقاومته الكافرين.

وضَرَبَ الأمثالَ للحالين ببعثة الرسل السابقين، وما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.

والتوكلُ على الله، والثناءُ على المؤمنين به، ومدحُ خصالِهم ومزايا أخلاقِهم، والإشارةُ إلى عذاب قريب يَحُلُّ بالمكذبين. ١٨/٣١٤ـ٣١٥

٣ـ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾.

افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب؛ لأن غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة، أو مقترنةً بحرف غير منفصل، مثل قول طرفة:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

أو بأفعال المضارعة ونحوها كقول امرئ القيس: «قفا نبك» البيت، أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل (إن) و (قد) والهمزة و (هل).

ومن قبيل هذا الافتتاح قول الحارث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء

وقوله النابغة:

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً　　　وهمين هماً مستكناً وظاهرا

وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع؛ لأن الندرة من العِزَّةِ،

والعِزَّةُ من محاسن الألفاظ، وضدها الابتذال. ١٨/٣١٥-٣١٦

٤- **والعض:** الشد بالأسنان على الشيء؛ ليؤلمه أو ليمسكه.

وحقه التعدية بنفسه إلا أنه كَثُرَتْ تعديتُه بـ:(على) لإفادة التمكن من المعضوض إذا قصدوا عضاً شديداً كما في هذه الآية.

والعض على اليد: كناية عن الندامة؛ لأنهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات بالجسد مثل التشذر، وهو رفع اليد عند كلام الغضب قال لبيد:

غُلْبٌ تشذّر بالدخول كأنهم جِنُّ البديِّ رواسياً أقدامها

ومثل وضع اليد على الفم عند التعجب، قال -تعالى-: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾.

ومنه في الندم قرع السن بالأصبع، وعض السبابة، وعض اليد.

ويقال: حَرَّق أسنانه، وحرَّق الأُرَّم -بوزن رُكَّع-: الأضراس أو أطراف الأصابع، وفي الغيظ عض الأنامل قال -تعالى-: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ﴾ في سورة آل عمران.

وكانت كنايات بناء على ما يلازمها في العرف من معان نفسية، وأصل نشأتها عن تهيج القوة العصبية من جراء غضب أو تلهف. ١٩/١٢

٥- وفَرَّع على وصفه بـ﴿الرَّحْمَنُ﴾ قوله: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ للدلالة على أن في رحمته من العظمة والشمول ما لا تفي فيه العبارة؛ فيعدل عن زيادة التوصيف إلى الحوالة على عليمٍ بتصاريف رحمته، مجربٍ لها مُتَلَقٍّ أحاديثها ممن علمها وجربها.

وتنكير ﴿خَبِيْراً﴾ للدلالة على العموم؛ فلا يظن خبيراً مُعَيَّناً؛ لأن النكرة إذا تعلق بها فعل الأمر اقتضت عموماً بدليل أي خبير سألته أعلمك.

وهذا يجري مجرى المثل، ولعله من مبتكرات القرآن نظير قول العرب: «على الخبير سقطت» يقولها العارف بالشيء إذا سئل عنه.

والمثلان وإن تساويا في عدد الحروف المنطوق بها فالمثل القرآني أفصح لسلامته من ثقل تلاقي القاف والطاء والتاء في (سقطت).

وهو -أيضاً- أشرف؛ لسلامته من معنى السقوط، وهو أبلغ معنىً لما فيه من عموم كل خبير، بخلاف قولهم: على الخبير سقطت؛ لأنها إنما يقولها الواحد المعيَّن، وقريب من معنى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْرًا﴾ قول النابغة:

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي إذا الدخان تغشى الأشمط البرما

إلى قوله:

يخبرك ذو عرضهم عني وعالمهم وليس جاهل شيء مثل من علما

٦١/١٩

٦- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾.

واعلم أن هذه الصلات التي أجريت على﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ جاءت على أربعة أقسام.

قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية: وهي التي ابتدئ بها من قوله -تعالى-: ﴿الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى قوله: ﴿سَلاَمًا﴾.

وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك: وهو الذي من قوله:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾.

وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام: وهو قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ الخ.

وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة: وهو قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾.
١٩/٦٧_٦٨

٧_ **والهَوْن:** اللين والرفق، ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره (مشياً) فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق.

والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام، وخفق النعال؛ فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوَّتهم.

وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله _تعالى_ والتخلق بآداب النفس العالية، وزوال بطر أهل الجاهلية؛ فكانت هذه المِشْية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية.

وعن عمر بن الخطاب أنه رأى غلاماً يتبختر في مشيته فقال له: «إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله».

وقد مدح الله _تعالى_ أقواماً بقوله سبحانه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ فاقصد في مشيتك.

وحكى الله _تعالى_ عن لقمان لابنه: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾.

والتخلق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن؛

لأن الرحمة ضد الشدة؛ فالهَوْن يناسب ماهيتها ، وفيه سلامة من صدم المارين. ٦٨/١٩

٨ـ وقُرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هوناً بوصف آخر يناسب التواضع ، وكراهية التطاول ، وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم.

وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون؛ إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم؛ فعلَّمهم الله متاركة السفهاء؛ فالجهل هنا ضد الحلم ، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام ، وذلك معلوم في كثير من الشعر والنثر.٦٩/١٩

٩ـ **قال ابن عطية:** وأريت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي وكان من المائلين على علي بن أبي طالب ﷺ قال يوماً بحضرة المأمون[1] وعنده جماعة : «كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم ، فكنت أقول له : من أنت؟ فكان يقول : علي بن أبي طالب ، فكنت أجيء معه إلى قنطرة ، فيذهب ، فيتقدمني في عبورها ، فكنت أقول : إنما تَدَّعي هذا الأمر بامرأة ، ونحن أحق به منك ، فما رأيت له في الجواب بلاغةً كما يذكر عنه.

قال المأمون : وبماذا جاوبك؟ قال : فكان يقول لي : سلاماً.

قال الراوي : فكأن إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية ، أو ذهبت عنه في ذلك الوقت ، فنبه المأمون على الآية مَنْ حضره ، وقال : هو والله يا عم علي بن أبي طالب ، وقد جاوبك بأبلغ جواب؛ فخزي إبراهيم واستحيا» . ٦٩/١٩ـ٧٠

١ـ لأن المأمون كان متشيعاً للعلويين.

١٠ـ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (٦٦) ﴾.

دعاؤهم هذا أمارة على شدة مخافتهم الذنوب؛ فهم يسعون في مرضاة ربهم؛ لينجوا من العذاب ، فالمراد بصرف العذاب : إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح ، وتوفيره ، واجتناب السيئات. ١٩/ ٧٠